اليمن وآثارها

للدكتور أحمد فخرى

---

١ — مقدمة :

إذا جاء ذكر الحضارة العربية أو أثر جزيرة العرب فى التقدم الإنسانى ، ينصرف ذهن أكثر الناس إلى الوقت الذى ظهر فيه نور الإسلام فملأ قلوب العرب ، ووحد بينهم ، فخرجوا يفتحون الأمصار ، وأنشأوا امبراطوريتهم العظيمة .

ولكن قبل أن يولد النبى العربى صلى الله عليه وسلم بأكثر من ١٥٠٠ عام كانت هناك فى بلاد العرب حضارة عظيمة ، لا تقل عن حضارات بلاد الشرق الأخرى ، وما زالت بقايا هذه الحضارة قائمة فى بعض جهات اليمن ؛ فمعابد المعينيين وآثارهم الأخرى التى بنيت فى القرن الثامن قبل الميلاد ما زالت تطاول السماء بأسوارها الضخمة ، وأعمدتها المرتفعة ، كما نقش سكان اليمن القدماء على جدران بعض معابدهم وعلى لوحات من الحجر والنحاس بعض أخبارهم ، فأصبحنا نعرف الكثير عنهم . وليس القرن الثامن قبل ميلاد المسيح عليه السلام هو مبدأ ظهور الحضارة فى اليمن ، ولكنه تاريخ محدد معروف ، ولا شك فى أن بدء ازدهار الحضارة فى تلك البلاد يعود إلى عصر أقدم من هذا العصر ببضع مئات من السنين ، أو أكثر من ذلك ، كما أن صلة اليمن بالبلاد المجاورة لها تعود إلى آلاف السنين ، ولا يخالجنا شك فى أن دراسة آثار اليمن بعد حفر مناطقها الأثرية ، سيلقى كثيراً من الضوء ، ليس على تاريخ الجزيرة العربية أو الجنس السامى فحسب ، بل ستوضح لنا الكثير عن صلة الحضارات القديمة بعضها ببعض ، والدور الذى لعبه قدماء اليمنيين فى تاريخ حضارة الشرق .

٢ — أقدم الصلات بين اليمن وغيرها من البلاد :

نعرف من الآثار المصرية أن المصريين القدماء كانوا يقومون منذ فجر تاريخهم برحلات بحرية فى البحر الأحمر لإحضار البخور وبعض أشياء أخرى من بلاد بونت ، وهى البلاد الواقعة حول بوغاز باب المندب ، على الشاطئين الأسيوى والأفريقى ، أى بلاد الصومال وجنوبى اليمن وحضرموت .

وقد كثرت هذه الرحلات منذ ألفى عام قبل الميلاد ، واستمرت حتى آخر أيام الحضارة المصرية ، وأشهر هذه الرحلات هى الأسطول الكبير الذى أرسلته الملكة « حتشبسوت » فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، وعاد محملا بخيرات تلك البلاد ، كما عاد أيضاً ومعه أشجار البخور . لغرسها فى حدائق معبد الإله أمون . وقد نقش الفنانون المصريون على جدران معبد هذه المملكة فى البر الغربى بالأقصر ، وهو المعروف باسم معبد الدير البحرى تفاصيل هذه الحملة وخيرات بلاد بونت ، ورسموا بعض بيوتها وأهلها وحيواناتها وأسماك البحر الأحمر . ومما يجدر ذكره أن الصلات التجارية بين مصر واليمن لم تقتصر على مدن الشاطىء ، بل وجدت طريقها إلى داخل البلاد . وقد رأيت فى رحلتى إلى اليمن فى العام الماضى بعض الآثار المصرية ، وأهمها جعران من عهد الملك « امينوفيس الثالث » من الأسرة الثامنة عشرة المصرية ، فى أوائل القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وبعض آثار مصرية أخرى ، يرجع تاريخها إلى القرن السادس من قبل الميلاد . ولكن هناك ما هو أهم من هذه الصلات التجارية . ولقد عرف المصريون أن بعض أجدادهم أتوا من طريق قفط القصير ، كما أنهم كانوا يعلمون أن بعض آلهتهم وخاصة الإله حورس أتاهم من الشرق ، وأحيانا يقولون من الجنوب ، وليس الإله حورس هو الإله الوحيد الذى جعلوا بينه وبين بلاد العرب صلة بل إن هناك آلهة أخرى أشهرها الإله « بس » الذى كانوا يذكرون دائما نسبته إلى بلاد بونت .

وكما اتصلت اليمن بمصر فإنها اتصلت بمهد الحضارة الآخر فى العراق ، فقد ورد على آثار السومريين منذ عام ٣٤٠٠ ق م . إشارات إلى الصلة بينهم وبين الجزيرة العربية ، وفى أحبار الملك « تيجلات بلسر الثالث » حوالى عام ٧٣٦ ق م . أنه أخذ من أهل سبأ جزية من الذهب والجمال والبخور .

أما صلة اليمن بالشاطئ الأفريقى فلا بد أنها بدأت منذ أقدم العصور ، وتركت القبائل اليمنية على الشاطىء الأفريقى ، وأحياناً داخل البلاد ، أثراً لا يمحى ، من حضارتها وثقافتها منذ آلاف السنين إلى اليوم ، وأهل أكسيوم القدماء ليسوا فى الأصل إلا بعض من هاجر من اليمن إلى بلاد الحبشة .

٣ — ذكر حضارة اليمن فى الكتب المقدسة :

وتعرف من القرآن الكريم ، ومن التوراة ، المدى البعيد الذى وصلت إليه حضارة اليمن ، وتكفى الإشارة إلى قصة سيدنا سليمان وملكة سبأ ووصف مملكتها وعرشها ، لندرك

ما كانت عليه اليمن حوالى عام ١٠٠٠ قبل الميلاد ، كما جاء ذكر ممالك معين وسبأ فى التوراة ، فى كتب الأنبياء ، مثل أرميا وحزقيال وأيوب ، تدرك من بين هـذه الإشارات ما كانت عليه تلك البلاد من حضارة ، وما كان فى أيدى أبنائها من سيطرة على تجارة الشرق القديم ، وذلك قبل مجىء الإسلام بأكثر من ١٢٠٠ سنة .

٤ — اليونان والرومان :

ولم تخل كتب مؤرخى اليونان والرومان من ذكر الجزيرة العربية وذكر المعينيين والسبئيين والحميريين ، وذكر تجارة البخور والعطور التى كانت فى أيدى تجار اليمن ، وهى التجارة التى كانت تدر على أصحابها أرباحا توازى ثمنها مائة مرة ، ولم يكن مسموحا للسفن الهندية أن تجتاز ميناء عدن ، فكانت تضطر إلى أن تبيع حمولتها إلى تجار اليمن الذين كانوا ينقلونها بقوافلهم إلى أسواق الشام مجتازين الجزيرة العربية ، من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال ، ومن غزة تأخذ طريقها شرقا إلى بابل ، أو غربا إلى مصر ومنها إلى أوربا وتعود قوافل اليمنيين من الشام محملة بكل ما يجدونه فى أسواقها ، فيبيعونه مرة أخرى إلى سكان الجزيرة ، أو إلى التجار الهنود .

وأراد الرومان أن يخضعوا اليمن لسلطانهم ، ليفوزوا بالسيطرة على هذا الطريق التجارى الهام ، فأرسلوا فى عام ٢٤ قبل الميلاد حملة تحت إمرة القائد « أليوس جالوس » حاكمهم فى مصر ، فخرجت الحملة يساعدها الأنباط حلفاء الرومان ، يقصدون غزو اليمن ، فلاقى الجيش أهوالاً كثيرة ، ثم وصل بعد ستة شهور إلى نجران . ولكن قبل أن يصل مأرب التقى باليمنيين فى معركة قضت قضاء تاما على أمل الرومان ، فعادت فلول الجيش إلى مصر بعد أن مات أكثرهم . وهذه الحملة هى أول وآخر حملة حربية ذات أهمية حاولت فيها أوربا أن تستولى على جزيرة العرب .

٥ — اليهودية والمسيحية :

هناك فى اليمن جالية يهودية تعيش فى جميع أنحاء البلاد ، ويقدر البعض عـدد اليهود بسبعين ألفاً ، يقيم منهم فى صنعاء نحو سبعة آلاف ، وأعتقد أن هذا الرقم مبالغ فيه ، ولا يمكن أن يزيد عدد اليهود عن خمسة وأربعين ألفا فى اليمن كلها ، وهم لا يختلفون فى مظهرهم العام عن باقى السكان ، اللهم إلا فى بعض مظاهر ، منها ترك الرجال لذؤابتين على جانبى الرأس ، ولبسهم

طاقية سوداء فوق رءوسهم ، ويقول اليهود إنهم أتوا إلى اليمن من فلسطين فى القرن الأول بعد الميلاد بعد تحطيم معبد أورشليم ، ولكن أكثر المؤرخين يميلون إلى عدم الأخذ بهذا الرأى ، ويعتقدون أن الدين اليهودى وصل إلى اليمن واعتنقه بعض اليمنيين قبل هذا التاريخ ببضع مئات من السنين . وقد كان المعينيون والسبئيون يعبدون الآلهة المختلفة ، ويرمزون لبعضها بالتماثيل كما لاقت عبادة الكواكب إقبالا كبيراً منهم ، وكان بعض هذه الآلهة محلياً أما البعض الآخر فقد جاء إلى اليمن من غيرها من البلاد وخاصة بابل . وعلى أى حال فقد انتشرت اليهودية انتشارا كبيرا فى جنوبى الجزيرة ، وكان أهم أوقات ازدهارها فى القرنين الخامس والسادس الميلاديين ، كما أن بعض ملوك اليمن الحميريين اعتنق الدين اليهودى وأخذ فى اضطهاد غير اليهود وخاصة المسيحيين .

وبالرغم من أنه لا يوجد مسيحى واحد بين اليمنيين الآن فإننا نعرف أنه جاء وقت على تلك البلاد كانت الكنائس منتشرة فى أنحاء البلاد المختلفة ، وكانت بلاد نجران هى أول مناطق اليمن التى رحبت بالدين الجديد .

ورأى اليهود فى المسيحية خطراً عليهم ، وحدثت مذبحة الأخدود فى نجران التى قتل فيها أكثر مسيحيي تلك البلاد ، وكانت السبب الذى تذرع به ملوك بيزنطة ليطلبوا من حليفهم ملك الحبشة أن يغزو اليمن ليثأر للمسيحيين وكان ذلك فى أوائل القرن السادس الميلادى .

فغزا الأحباش بلاد اليمن ، وبنوا كنائس كثيرة أهمها «القليس» فى صنعاء التى زخرفها أبرهة إلى أقصى حد ووضع فيها التماثيل ورسم فيها صوراً مذهبة ، وأراد أن يجعل من صنعاء مركزاً تجاريا وثقافياً تأتى إليه القبائل بدلا من مكة وكعبتها فى الحجاز ، وليكون فى ذلك ما يحبب الناس فى قبول المسيحية ، ولكن حدث بعد ذلك ما أثار أبرهة ، فسار إلى مكة ليهدم الكعبة ، ولكنه عاد مدحورا إلى اليمن .

٦ — الإسلام :

وبينما كانت الجزيرة العربية فى هذه الحالة غير المستقرة ، أراد الله أن يظهر فى مكة دين جديد قضى على ما هناك من خلافات وحقق معجزة اتحاد سكانها ، ثم خرجت الجيوش العربية لتقضى على جيوش الفرس والروم .

وكان لليمن دور هام فى نشر دعوة الاسلام ، فإن قبيلتى الأوس والخزرج اللتين ناصرتا النبى الكريم يمنيتان ، هاجرتا من الجنوب واستقرتا فى المدينة على الطريق التجارى بين عدن وغزة ، كما أن دعوة الإسلام لقيت النجاح الكامل بين قبائل اليمن ، فلم يسلموا فحسب

بل كانوا أول المستجيبين لدعوة رسول الله إلى الجهاد . فخرجوا من بلادهم لنشر الدعوة ، وفتحوا الأمصار ونشروا الإسلام ، وكانوا بحكم مدنيتهم أقدر من سكان الحجاز ونجد على الحياة فى البلاد التى خضعت لنفوذ الإسلام . فكان جيش عمرو بن العاص الذى فتح به مصر من اليمن كله ، كما أن الجيوش التى سارت إلى شمال أفريقيا كان أكثرها من القبائل القحطانية ، وهـذا هو السبب فى التشابه المحسوس بين عادات بعض سكان تونس والجزائر ومراكش وبعض الواحات فى الصحراء الكبرى وعادات بعض سكان القبائل اليمنية وخاصة قبائل المشرق .

وأهل اليمن أذكياء ويستطيعون تكييف حياتهم فى أى محيط جديد ، فلم يلبثوا إلا قليلا حتى امتزجوا بسكان مختلف الأمصار ، وتعلموا منهم أشياء كثيرة يجهلونها ، كما علموهم أيضاً بعض ما يعرفونه من بقايا مدنيتهم السابقة ، فكانوا من أهم بناة الصرح العظيم الذى عرفه العالم باسم الحضارة الإسلامية .

٧ — بلاد اليمن فى العصر الإسلامى :

لم تلبث بلاد اليمن إلا قليلا حتى بدأت الخلافات المذهبية تحدث أثراً كبيراً فى وحدتها وأمنها ، ولكن رغم ذلك تمتعت البلاد فى بضع فترات بازدهار كبير إذا لم يشمل اليمن كلها فإنه كان يشمل بعض مناطقها ، وخاصة اليمن السعيدة (لواء آب) ولواء تعز وزبيد وذمار وصنعاء . وظهرت دول كثيرة ترك بعضها ثروة هامة من العمارة وخاصة فى بنـاء الجوامع مثل الدولة الرسولية ، كما تابع اليمنيون فى العصر الإسلامى سياسة أسلافهم فى العناية باستغلال مياه الأمطار والسيول ، وذلك ببناء السدود والخزانات والصهاريج لأن بلادهم تكاد تكون خلواً من الأنهار .

وظلت اليمن مقطعة الأوصال مقسمة إلى دويلات ، ساعد على وجودها كثرة المذاهب الدينية ، فهناك مثلا الشوافع فى بلاد تهامة وفى لواء آب وفى بلاد المشرق ، وهناك الزيود أتباع الامام زيد بن على الذين بقيت لهم تقاليدهم الخاصة منذ ألف سنة ، ولهم إمامهم الخاص الذى لا يأتمرون بأمر غيره ، وهم يسكنون الجبال . وهناك أيضا بعض الشيعة الإسماعيلية . وفى وقت من الأوقات اشتد ساعد أصحاب مذهب الباطنية ويسمون الكارمة ، وكانوا إلى سنوات مضت يمارسون مذهبهم فى بعض البلاد على مقربة من ذمار ، وفى بعض بلاد همدان ، ولم يقض على أعمالهم إلا جلالة الإمام يحيى رحمه الله .

ودانت اليمن لحكم الأتراك ، ولكن نفوذهم لم يتعد الشاطئ واقليم آب وصنعاء وما حولها ، وبقى أكثر البلاد يحيا حياة القبائل كما عاش أجدادهم ، ورغم الثلاثمائة عام التى اتصل فيها الأتراك باليمن ، فإنهم لم يستطيعوا توحيد البلاد ، بل على العكس تسببوا فى تمزيق أوصالها ، ولم تخضع لحكومة واحدة إلا فى عهد المرحوم الإمام يحيى بن حميد الدين ابتداء من عام ١٩٣٦ فقط وبعد جهاده أكثر من ثلاثين عاما وهو يعمل لهذا الغرض .

ولا شك أن بلاد اليمن تأخرت كثيرا عن غيرها من البلاد ، ولكن يجب أن نقرر حقيقة هامة ، وهى أن الصناع اليمنيين لم يفقدوا مقدرتهم ، بل ظلوا محتفظين بها ، كما أن علماء اليمن حافظوا على ما كان يصل إليهم من علوم ، فظلت جذوة الذكاء مشتعلة إلى اليوم .

٨ — المناطق الأثرية فى اليمن :

إذا أردنا حصر بقايا الحضارة الاسلامية فى اليمن وجدنا أن هناك نوعين أحدهما الجوامع وأهمها الجامع الكبير فى صنعاء وجامع الجند على مقربة من تعز وبعض المساجد فى تعز نفسها وخاصة الأشرفية ، كما نرى فى آب وزبيد وذمار بعض جوامع أخرى ، ولكنها فى مجموعها لا يمكن مقارنتها بجوامع القاهرة أو دمشق وغيرهما من الحواضر الإسلامية . وثانى آثار الحضارة الإسلامية هى آلاف المخطوطات المبعثرة فى اليمن وأهمها فى مكتبة المغفور له جلالة الامام الراحل ، وفى مكتبة الجامع الكبير ، وهناك مئات من المجموعات الخاصة فى جميع أنحاء البلاد ، وهى ثروة من العلم لا يوجد لها نظير فى أى قطر إسلامى آخر .

ولم يبق فى بلاد اليمن كلها شىء من بقايا الكنائس المسيحية ظاهرا فوق الأرض . كما أنه لا توجد فى اليمن كلها بيعة قديمة لها أهمية . وأقدم المخطوطات العبرية لدى اليهود لا يرجع تاريخه إلى أكثر من خمسمائة عام .

ويوجد فى أنحاء اليمن بعض بقايا الحصون من العصور الوسطى ، كما توجد فيها أيضاً بعض الأعمال الهندسية لحسن استغلال المياه ، ولكن أهم آثار اليمن هى بقايا الحضارات المعينية والسبئية والحميرية .

والحضارة المعينية هى أقدم حضارات اليمن ، وكانت عاصمتهم فى بلاد الجوف ، وما زال هناك الكثير من بقايا المدن القديمة وفيها آثار المعابد وعلى جدرانها وفى أبهائها النقوش ، وأهمها مدن معين والحزم والبيضاء والسوداء وكمنا . وقد عثر الأهالى على الكثير من الأحجار

المكتوبة وعلى التماثيل ولوحات البرونز والحلى والعملة القديمة ، ووجدت طريقها إلى عدن ثم إلى بعض المتاحف الأوربية والأمريكية .

وكانت عاصمة الحضارة السبئية فى بلاد مأرب ، وما زالت خرائب العاصمة باقية إلى اليوم تنتظر يد العلم لتكشف عن وجهها القناع ، وخرائب هذه المدينة لا تقل فى اتساعها عن أى عاصمة من عواصم العالم القديم ، وترى الكثير من الأعمدة والأحجار المنقوشة ملقى بين خرائبها ، كما ترى بعض جدران منازلها ومعابدها ظاهرة فوق الأرض . وحول خرائب مأرب نرى الكثير من المناطق الأثرية أهمها المعبد المعروف باسم محرم بلقيس والمعبد المعروف باسم العمايد ، كما يوجد على مسافة ثمانية كيلو مترات تقريباً غربى الخرائب بقايا سد مأرب الشهير ، وسنتحدث عنه بشىء من الإسهاب فيما بعد .

ومن أهم مراكز الحضارة السبئية مدينة صرواح وفيها بقايا المعابد ، كما نجد فيها أيضاً الكثير من النقوش الهامة .

أما ثالث الحضارات وأقربها عهداً إلينا فهى الحضارة الحميرية ، وكانت فى الجنوب ، وأهم بقاياها نجدها فى مدينة ظفار على مقربة من مدينة ريم ، وفيها بقايا المعابد والمقابر ، ولكن قد تخرب أكثرها ، وسرق اللصوص أكثر ما فيها من نقوش أو أحجار مرسومة ، لأن ظفار واقعة فى المنطقة التى كانت خاضعة لحكم الأتراك ، بينما بلاد مأرب وبلاد الجوف لم تخضع يوما ما للحكم التركى ، ولم يجرؤ الناس على الذهاب إليها بكثرة خوفا من سطوة القبائل التى تقيم هناك ، ولم يستطع جلالة الإمام الراحل أن يضمها إليه إلا حوالى عام ١٩٣٢ .

٩ — الرحالة الذين زاروا الآثار :

أخذ البدو منذ وقت طويل يبيعون ما يجدونه من الآثار إلى الذين يتجرون فيها فى عدن وكان طبيعيا أن يسأل هؤلاء التجار عن البلاد التى أتت منها هذه الآثار ، فكانوا يحدثونهم عما فى بلاد مأرب وبلاد الجوف من بقايا المدن القديمة . ولم يتيسر لأحد من الأجانب الوصول إلى تلك البلاد قبل الصيدلى الفرنسى « يوسف توماس أرنو » فى عام ١٨٤٣ ، وقد لاقى أكبر المشقات وكان نجاحه محدودا .

وفى عام ١٨٧٠ أرسلت وزارة المعارف الفرنسية العالم « يوسف هاليفى » لنقل كل ما يستطيع نقله من نقوش فى بلاد اليمن لنشره فى معجم النقوش السامية ، فكان هاليفى أول وآخر أوربى استطاع أن يزور بلاد مأرب والجوف ، ولاشك أن هاليفى نجح فى عمله ، وأدى

للعلم أجل الخدمات ، وقد ساعده فى عمله أنه لبس ملابس اليهود واليمنيين ، وكان ينام فى منازلهم أينما سار ويتخذ أدلاءه من بينهم .

وفى عام ١٨٨٢ بدأ ادوارد جلازر رحلاته إلى اليمن — وهو إسرائيلى الدين مثل هاليفى — ولكنه لم يستطع الذهاب إلى مأرب إلا فى رحلته الثالثة إلى اليمن فى عام ١٨٨٨ وكان يدعى أنه من الحجاج الأتراك ، وسمى نفسه باسم الحاج حسين ، ورغم حماية أشراف مأرب له ، وتعهدهم للحاكم التركى فى صنعاء بسلامته فإن رجال قبيلة عبيدة كادوا يفتكون به لولا هروبه أثناء الليل من مأرب . ولم يذهب جلازر إلى بلاد الجوف ، ولهذا بقى ما نقله هاليفى من النقوش مصدرنا الرئيسى إلى اليوم رغم مرور ثمانية وسبعين عاما .

ولم يجرؤ أحد بعد جلازر على المخاطرة بالذهاب إلى تلك البلاد ، وكان المرحوم الإمام يحيى يخشى على حياة ضيوفه ، فلم يسمح لأحد منهم بالسفر إلى تلك المناطق التى تعيش فيها قبائل لا تخضع لقانون ولا ترتاح إلى رؤية شخص غريب ، ولم يسمح المرحوم الإمام يحيى لأحد بالسفر إلى مأرب إلا للأستاذ نزيه مؤيد العظم فى عام ١٩٣٦ ، كما أنه سمح للأستاذ محمد توفيق بالسفر إلى الجوف وزيارة آثاره فى عام ١٩٤٥ ، وكانت رحلة كل منهما برضاء جلالة الإمام ، وأرسل مع كل منهما الحراس اللازمين .

وفى شهر مايو عام ١٩٤٧ كان لى وفير الحظ بارتياد المناطق الأثرية فى اليمن ، فزرت بلاد صرواح ومأرب ، كما ذهبت أيضاً إلى بلاد الجوف وزرت خرائبها كلها . وعدت ومعى مجموعة صور فوتوغرافية لآثار اليمن ، وما رأيته فيها من كتابات أو أحجار منقوشة ، كما تمكنت من نقل نقوش كثيرة أكثرها لم يره أحد من قبل لأنه خرج من مكانه فى العامين الأخيرين فقط . وقد أضافت هذه الكتابات ثروة كبيرة إلى معلوماتنا عن تاريخ تلك البلاد وديانتها القديمة . كما ألقت صور الأحجار المنقوشة كثيراً من الضوء على صلة الفن اليمنى القديم بفنون البلاد الأخرى وخاصة الحضارة البابلية .

وكان الفضل أولا وأخيراً فى نجاح زيارتى لآثار اليمن إلى المغفور له جلالة الإمام يحيى الذى لم يكتف رحمه الله بتسهيل زيارتى لهذه المناطق ، بل أمر بأن أكون ضيفه أثناء إقامتى هناك وكان يشملنى بعطفه وعنايته فله كراء الغالية أطيب الشكر والعرفان بالجميل .

١٠ — سد مأرب :

ومن أهم ما عنيت بدراسته فى هذه الرحلة موضوع سد مأرب فأقمت على مقربة منه يومين

نقلت أثناءهما جميع ما فيه من نقوش كما أخذت أبعاد بقايا الأبنية التى فيه . وقد كان هذا السد يؤدى غرضين أولهما حجز المياه خلف وادى مأرب المتسع عند مكان يكاد يلتقى فيه جبلا بلق الأيمن والأيسر ، فى نقطة تسمى الضيقة ، للانتفاع بالمياه مدة أطول من فترة مرور السيول ، وذلك بتصريفها من البوابات حسب الحاجة ، وثانى الغرضين رفع المياه خلف السد إلى علو خمسة أمتار على الأقل حتى يمكن رى أراضى الوادى المرتفعة . ولهذا الغرض بنوا فى عرض السابلة عند الضيقة حائطا ضخما جعلوا فيه فتحتين لتصريف المياه إحداهما إلى اليمين ، وكانت تخرج منها ترعة كبيرة لتروى الجنة اليمنى ، والأخرى وهى الأهم إلى اليسار ، فكانت تخرج منها ترعة كبيرة تسير نحو ١١٦٠ مترا ، ثم تصل إلى حوض كبير يخرج منه أربعة عشر مجرى للمياه فى الاتجاهات المختلفة لرى الوادى المتسع .

وقد كان كل من الترعتين يروى عدة بلاد اندثرت الآن بعد تهدم السد ولم يبق فى المنطقة إلا قرية صغيرة وهى قرية مأرب وتحتل ركناً صغيرا بين الخرائب وتعتمد فى زراعتها على الأماكن المنخفضة التى تستطيع أن ترويها مياه السابلة وتعتمد فى شرب سكانها وماشيتها على الآبار ، أما مياه الأمطار فتذهب الآن سدى فى الصحراء .

وهناك عدة خرائب لقرى كانت ترويها الترعة اليمنى — وهى الباقية من الجنة اليمنى — وأهمها مدينة النحاس وخرابة مروث ومحرم بلقيس والعمايد ، وفيها كلها بقايا معابد وأبنية بالحجر . أما الترعة اليسرى فكانت لرى مدينة مأرب العظيمة وهى ملأى ببقايا المعابد المختلفة والقصور المبنية بالحجر وتظهر أعالى جدرانها من بين الأنقاض هى والأعمدة . ومن النقوش التى على مقربة من السد تعرف أن أول من فكر فى إقامته هو الملك « سمهعلى ينوف » وأتم العمل ابنه « يثع أمر » اللذان عاشا فى القرن الثامن قبل الميلاد ، وقد تهدم السد عدة مرات وأصلحه الملوك المختلفون وهذا هو السبب فى وجود أسماء ملوك عديدين فى نقوش الأحجار التى أعادوا استعمالها فى البناء . وكان آخر ترميم للسد هو الترميم الذى قام به الملك أبرهة الحبشى فى النصف الأول من القرن السادس الميلادى وذكر تفصيل انتصاراته وترميمه للسد على لوحتين كبيرتين ما زالتا على مقربة من مكانهما الأصلى وإحداهما مؤرخة فى عام ٥٤٢ والأخرى عام ٥٦٥ وأهم النصين يبدأ بقول أبرهة « بقوة وجبروت ورحمة الإله الرحيم ومسيحه والروح القدس نقشت أنا أبرهة هذا النقش كنائب للملك الجازرحيس وذوبيمان ملك سبأ وذوريدان وحضرموت واليمن وأعراب الجبال وتهامة » ، ثم يتحدث النص بعد ذلك عن الثورة التى قامت بين القبائل فى بلاد مأرب وذهابه لإخضاعها ثم عمله وهو هناك بأن سد

مأرب قد تصدع فأمر بإصلاحه وتم ذلك فى أحد عشر شهرا وصرفت المخازن للعمال الذين قاموا بهـذا العمل ٥٠٨٠٦ كيسا من الدقيق و ٢٦٫٠٠٠ حمل من البلح و ٣٠٠٠ جمل وثور و ٢٠٧٠٠٠ رأس من الغنم وذلك عدا الحيوانات التى استعملها العمال فى النقل ، وذكر أبرهة فى هذا النص أيضا مقاييس السد كما أشار إلى تفشى وباء الجدرى فى منطقة مأرب أثناء وجوده هناك .

وكان هذا الترميم هو آخر ترميم لسد مأرب ، إذ أصابه الخراب بعد ذلك بقليل فحدث سيل العرم الشهير ومنذ ذلك اليوم اندثرت جميع البلاد الزاهرة التى كانت فى هذه المنطقة .

خاتمة :

إن فضل اليمن على الحضارة الإسـلامية فى غير حاجة إلى تذكير أو تعريف ، فقد كان لليمنيين الفضل الأكبر فى نقل حضارتهم وحضارات الأمم المختلفة التى نقلت الإسلام من مكان إلى مكان ، ونشروا الكثير من فروع العلم والعمارة وخاصة إقامة السدود فى جهـات مختلفة فى آسيا وفى شمال أفريقيا وفى أسبانيا .

ولكنا نعرف أيضا أن بلاد اليمن لعبت منذ فجر التاريخ دوراً هاما فى نشر التجارة بين بلاد الشرق القديم واستقر المهاجرون اليمنيون فى شمال الجزيرة العربية فكان منهم البابليون الذين غلبوا السوميريين على أمرهم فى بلاد ما بين النهرين فى الألف الرابع قبل الميلاد . وكان منهم أيضا القبائل التى عبرت البحر الأحمر إلى الشاطئ الأفريقى وصبغت جزءا كبيراً من تلك البلاد بحضارتها ، وأكبر الظن أن أحفاد بعض هذه القبائل وصلوا إلى وادى النيل من الجنوب ومن الشرق وذلك فى فجر التاريخ أيضا .

إن مناطق الآثار فى بلاد اليمن لم تمتد إليها يد العلماء بعد ، وكل ما وصل إلينا من معلومات لم يعد ترجمة الأحجار التى أتت من سطح الأبنية وبعضها يرجع إلى القرن الثامن قبل الميلاد ولكن بعض هذه الأكوام والأنقاض يرتفع ارتفاعاً كبيرا ، وكلما تعمق الحفار فى عمله وصل إلى عصور أبعد فى التاريخ لأن هذه المدن بنيت على أنقاض مدن أقدم منها .

إن هناك فجوات كثيرة فى التاريخ القديم للشرق بل لا نبالغ إذا قلنا إن هناك حلقات مفقودة فى أصل تاريخ حضـارة بعض بلاد الشرق القديم وهناك أمل كبير فى أن الأبحاث المقبلة فى جنوبى الجزيرة العربية ستملأ هذه الفجوات وتصل بين هـذه الحلقات بل وستلقى ضوءاً كبيرا على فضل الجنس السامى والدور العظيم الذى لعبته الجزيرة العربية فى حضارة العالم قبل دورها العظيم الذى قامت به عندما انبثق منها نور الإسلام » .

أحمد فخرى